

الصهيونية والاسامية والاستعمار

جوزف مسعد*

منذ انبثاق الحركة الصهيونية، قدّم المفكرون الصهاينة مشروعهم الاستعماري القومي بوصفه رداً على اللاسامية. وفي حين رأى الصهاينة أنّ اللاسامية هي عرض من أعراض، إن لم تكن تشخيصاً للمسألة اليهودية، فقد قدمت الصهيونية نفسها على أنها الترياق الشافي، الذي من شأنه القضاء على اللاسامية في أوروبا مرة واحدة وإلى الأبد. وقد أصّر تيودور هرتزل وأتباعه على إلقاء تبعه اللاسامية على وجود اليهود في المجتمعات غير اليهودية. ففي كتيبه المؤسس للحركة الصهيونية «دولة اليهود»، وصف هرتزل الحال الراهن كالتالي: «ها هم اليهود البائسون يقومون اليوم بنقل بذور اللاسامية إلى إنكلترا؛ بعد أن كانوا قد نقلوها من قبل إلى أميركا». وبما أنّ الصهاينة كانوا يشاطرون اللاساميين هذا التشخيص، فقد قاموا، مثلهم مثل اللاساميين، بمطالبة اليهود بالرحيل عن المجتمعات غير اليهودية، من أجل تحويل وضعهم «غير السوي» إلى وضع «سوي»، وتحويلهم إلى قوم وأمة مثل باقي الأمم.

ولما كان من غير الممكن لأهداف الصهيونية أن تتحقق إلا عبر مشروع استعماري استيطاني، فقد أيقن مؤسسوها ضرورة التحالف مع القوى الاستعمارية لإنجاز هذه الأهداف. وعلى الرغم من أنّ استعمار فلسطين كان قد بدأ في وقت متأخر، عشية انحسار الاستعمار الأوروبي، فقد كانت الصهيونية في سنواتها الأولى، وأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، على وجه التحديد، تعيش أزهى أيامها في ظلّ ازدهار اللاسامية والاستعمار في أوروبا. وقد قامت الصهيونية اليهودية ورعاتها المسيحيون الأوروبيون في سنواتها الأولى باستدعاء التأكيد البروتستانتي المنعصب على ارتباط يهود أوروبا بأرض فلسطين تاريخياً وجغرافياً، ووجوب أن «يعودوا» إليها، وهو ما جعلهم يصمون المعارضة الفلسطينية للاستعمار اليهودي آنذاك بالتعصب البدائي للسكان الأصليين إزاء الحكم الأوروبي، وبأنها إهانة وتحذّر للدعوات اليهودية والمسيحية، التي تؤكد أنّ فلسطين هي «الوطن القومي» لليهود أوروبا.

الدول المعادية للسامية

لقد شكّلت الدول التي ترعى اللاسامية رسمياً مصدراً رئيساً لدعم ومساعدة الحركة الصهيونية. وبالفعل، فقد أقرّ القادة الصهاينة، بوعي تام، أنّ وجود دول راعية للاسامية هو أمر ضروري لنجاح مشروعهم الاستعماري. وكان كلام هرتزل واضحاً في هذه المسألة، حيث أعلن في كتيبه أنّ «حكومات جميع البلدان التي تستشري فيها اللاسامية ستكون مهتمة بمساعدتنا على الحصول على السيادة التي نرنو إليها»، وليس «اليهود الفقراء فقط هم من سيسهمون في صندوق لهجرة يهود أوروبا، إنما سيكون للمسيحيين، الذين يريدون التخلص منهم، اسهام كذلك». ويخلص هرتزل في مذكراته إلى أنّه «سوف يكون اللاساميون في مقدمة أسدقائنا الذين يمكننا الاعتماد عليهم، وستصبح البلدان المعادية للسامية حليفنا». لم تكن هذه التصريحات التي خطّها هرتزل بيده مجرد زلات قلم أو هفوات لسان غابت عن ذهن قائلها، بل كانت تعبر في الواقع عن استراتيجية طويلة الأمد ما زالت الصهيونية وإسرائيل يتبعانها حتى يومنا هذا.

ولم يكن تقرب الصهاينة من آرثر بلفور، البروتستانتي المعادي للسامية، والذي رعى عام 1905 مشروع قانون الأجانب الذي يمنع اليهود الفارين من مذابح أوروبا الشرقية من الهجرة إلى إنكلترا، مجرد مصادفة. كما لم تكن لاساميته هذه منبئة الصلة عن دعمه للمشروع الصهيوني من خلال «وعد بلفور» سبي الذكر، الذي كان من شأنه إعادة توجيه اليهود بعيداً عن إنكلترا. فعندما تولى النازيون السلطة في ألمانيا، كانت الصهيونية، التابعة لحكمة هرتزل بأنّ اللاسامية هي حليقة الصهيونية، المجموعة اليهودية الوحيدة التي تعاونت معهم. وفي الواقع، على النقيض من كل اليهود الألمان الآخرين (ومعظم الناس داخل وخارج ألمانيا) الذين اعتبروا النازية ألد أعداء اليهود، رأت الصهيونية في النازية فرصة لتعزيز استعمارها لفلسطين. ففي عام 1933، وقّعت الصهيونية اتفاق النقل «هغبره» مع النازيين، وكسرت من خلاله المقاطعة الدولية للنظام النازي. وبموجب هذا الاتفاق قامت ألمانيا النازية بتعويض اليهود الألمان الذين يفقدون ممتلكاتهم نتيجة هجرتهم إلى فلسطين من خلال تصدير سلع ألمانية للصهاينة في فلسطين بنفس قيمة الممتلكات المفقودة، وكسرت بالتالي المقاطعة. هكذا غدت النازية بمثابة هدية للصهيونية في عقد الثلاثينيات، حيث كان ستون في المئة من مجمل رأس المال المستثمر في القواعد اليهودية في فلسطين، بين عامي 1933 و1939، قد تدفق من المال اليهودي الألماني نتيجة «اتفاق النقل».

في عام 1935، كان فرع الصهيونية الألماني القوة السياسية الوحيدة التي أيدت قوانين نورمبرغ النازية، التي مأسست التمييز العرقي ضد اليهود في ألمانيا، كما كانت الحركة الصهيونية الجهة الوحيدة المسموح لها بنشر صحيفة خاصة بها («زوندتشاو»)، والتي استمرت بالصدور حتى مذبحه «ليلة الزجاج» في عام 1938. وتأكيداً على متانة العلاقات التي ربطت الصهاينة والنازيين في تلك الفترة فقد حلّ مسؤولون نازيون ضيوفاً على الصهاينة عندما قاموا بزيارة فلسطين في عامي 1934 و1937. وقد وصل كل من أدولف أيخمان وهربرت هاغن إلى فلسطين في عام 1937 لتفقد الإنجازات الصهيونية، وقام المبعوث الصهيوني فايفل بولكس باصطحابهما في جولة على جبل الكرمل لزيارة إحدى المستعمرات اليهودية هناك. أما وصول أيخمان إلى البلاد في مطلع الستينيات، عندما تمت محاكمته وإعدامه، فقد كانت زيارته الثانية لفلسطين. وتغفل الدعاية الإسرائيلية عادة ذكر زيارته الأولى. دأبت الصهيونية على الادعاء بأنّ تعاونها مع اللاسامية كان استراتيجياً لإنقاذ اليهود، إلا أنّ الوقائع تنفي ذلك، فقد قامت الصهيونية، خلال الحكم النازي، بمنح يهود بريطانيا والولايات المتحدة الأولوية على حساب اليهود الألمان في أحقية الهجرة إلى فلسطين. كما رفضت القيادة الصهيونية، في واقع الأمر، ثلثي المتقدمين للهجرة إلى فلسطين من اليهود الألمان لعدم انطباق معايير المهاجر المثالي المفروضة صهيونياً عليهم، والتي تتضمن حسب الصهاينة الالتزام بالصهيونية، وأن يكون المهاجر في سن الشباب، وبصحة جيدة وحاصلاً على التدريب، ويمتلك ثروة، ويمتلك المهارات اللازمة، ويعرف العبرية.

عالم بعد الحرب العالمية الثانية

سعى الصهاينة، اثر اندثار الدول الراعية



أيقن مؤسسو الصهيونية ضرورة التحالف مع القوى الاستعمارية لإنجاز أهدافهم

لم يكن تقرب الصهاينة من آرثر بلفور، البروتستانتي المعادي للسامية، مجرد مصادفة



للاسامية التي تلاشت بعد هزيمة النازيين وما تبعها من كشف لأهوال وفظائع المحرقة النازية، إلى طمس الكثير من تاريخ تعاونهم مع الحركات والأنظمة المعادية للسامية. وشكّل اختفاء الدول الراعية للسامية، وما تلاه من رفض عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية لمعاداة السامية وشجبه واستنكاره للاستعمار والاستيطان، معضلة حقيقية للمشروع الصهيوني. فقد أصبحت علة وجود الصهيونية، التي كانت تعتبر نفسها رداً على

التهديدات المعادية للسامية ضد اليهود، في خطر، إذ لن يقتنع اليهود بضرورة تهجيرهم إلى دولة إسرائيل الجديدة. فبانتهاج عصر الاستعمار وانبثاق عالم ما بعد الاستعمار ونشوء الدول المستقلة فقدّ الاستعمار والاسامية شرعيتهما في الخطاب والعلاقات الدولية والأوروبية.

لقد وضعت هذه التحولات الصهيونية في مأزق، فلم يعد بمقدورها المضي قدماً إلا من خلال تعزيز استعمارها للأرض الفلسطينية. ولكنها قررت، في سبيل مواجهة تنامي العداء للاستعمار، إعادة تأطير مشروعها على أنّه صراع ضد الاستعمار. ووجد اليمين الصهيوني في تراجع بريطانيا، راعية الصهيونية الرئيسية، عن دعمها للمشروع الصهيوني منذ بداية الحرب العالمية الثانية، فرصة مواتية لتصويب سهامه ضدها. وبحجة أنّ بريطانيا خانته، قام المستوطنون اليهود بشن هجمات إرهابية ضد القوات البريطانية في فلسطين. وعلى النقيض من الصراعات الأخرى المناهضة للاستعمار، التي تكون نسبة عدد الضحايا فيها من المناهضين فلكية مقابل ضحايا القوى الاستعمارية، أذى الإرهاب اليهودي والردّ البريطاني عليه في الفترة ما بين عامي 1944 و1948 إلى قتل 44 إرهابياً يهودياً و170 جندياً ومدنياً بريطانياً، أيّ بما نسبته 1 إلى 4 لصالح الإرهابيين. ومع ذلك، وفي سبيل تأكيد كونها حركة مناهضة

■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب ■ مدير التحرير: إيلي شلموب، وقيف قانصوه ■ اقتصاد: محمد زبيب ■ محليات: حسن عليف ■ مجتمعي: مهدي زرافط ■ عالم: حسام كفتاني ■ ثقافة: وائل، اهل الانديز ■ وحدة البحوث: عمر نشابة

■ المدير الفني: اميل منعم ■ مدير الموقع الإلكتروني: منصور عزيز

■ رئيس مجلس الإدارة: ابراهيم الامين ■ الإدارة المالية: فادي خليك

■ الموارد البشرية: رينا اسماعيل

■ المكاتب: بيروت - فردان - شام دونان - سنتر كوكورود - الطابق السادس ■ تليفاكس: 01759597 01759597 ■ ص.ب. 113/5963

www.al-akhbar.com

■ الامتلات: Tree Ad 03 / 252224-01 / 611115 ■ التوزيع: شركة اللوانك 03 / 828381-01 / 666314-15

الزخار

تأسست عام 1953

تصدرت شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس

جوزف مسعد (2007-2006)

مستشار مجلس التحرير

أنسي الحاج

رئيس التحرير: المدير المسؤول

إبراهيم الامين